الاحتفال بربيع الشعراء



أقامت لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة احتفالها السنوى بربيع الشعراء عبر ثلاثة أيام (١٦-١٨) مارس الماضى، وقد تم الاحتفال هذا العام بالذكرى الستين لرحيل ثلاثة من أعلام الاتجاه الرومانسى فى الشعر المصرى التقليدى، وهم «على الجارم» و«إبراهيم عبد القادر المازنى» و «على محمود طه» الذين رحلوا ثلاثتهم عام ١٩٤٩.

وقد شارك فى الاحتفال حشد كبير من الشعراء والنقاد، سواء بإلقاء نماذج من قصائد كل شاعر من هؤلاء الأعلام الثلاثة فى اليوم المخصص له، أو بإعداد قراءات نقدية حول بعض أعماله، كان اليوم الأول مخصصًا للاحتفال بالجارم، والثانى بالمازنى، والثالث بعلى محمود طه، وقد أصدر المجلس كتابًا أعده «فاروق شوشة» يضم مختارات من أعمال الشعراء الثلاثة المحتفى بذكراهم.

وفى الصفحات التالية إحدى القراءات النقدية التى قدمت في الاحتفال، وهى للشاعر والناقد الدكتور «محمد حماسة عبد اللطيف» عن قصيدة (كأس النسيان) للمازنى.

قصيدة كأس النسيان
لعبد القادر المازنى(*)

محمد حماسة عبد اللطيف

- ١ -

١-هــات اسـقـنـى سـلـوةً عـنَ الـذِّكَـرِ   أنْـسـى بـهـا مـا مَـضـى مـن الـعـمُـرِ
٢-أنـسـى بـهـا حـاضـرى ومؤتـنـفـى   كـأنّـمـا يُـدْرجـان فـى الـحُـفَـرِ
٣-بـهـا أُنـيـم الـشـجـونَ قـاطـبـةً   وأتّـقـى الـدّهـرَ كَـرة الـفِـكَـرِ

(*) ديوان المازنى ٢٤٣-٢٤٤ طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. تولى مراجعته وضبطه وتفسيره محمود عماد العضو بلجنة الشعر.

٤-هات اسقنيها وخلّ نشوتها ... تمحو الذى فى الفؤادِ من صُوَرِ
٥-وخذ كنوز العقول وارمِ بها ... من حالقٍ للرياحِ والمدَرِ

* *

٦-كم غُصْتُ فى لجة الحياة فما ... فزت بغير الصخور والحجرِ
٧-وكم نفضت اليدين من حجرٍ ... حسبتُه درةً من الدّررِ
٨-فخلّ كأس العفاء تسلبنى ... كنزى وتشحو سلاسل الخبرِ
٩-ما ضرنى لو جهلت ما علمتْ ... نفسى وما قد أفادنى نَظَرى
١٠-أو لو نسيت الذى شعرت به ... فى كِبَرى الآن أو لدنْ صِغَرى
١١-أو لو سلوت الذى كلفتُ به ... على الذى كان فيه من شَكَرِ
١٢-أو لو فقدت الذى فرحتُ به ... وما وجدنا فى حدّة الّنظرِ

* *

١٣-أثَمَّ صوتٌ تعيد نبرتُه ... إلىّ ذكرى الربيع والزّهرِ
١٤-أثَمَّ عينٌ تثير نظرتها ... أحلام نفسى فى ريّقِ البكرِ
١٥-وتنشر اللذّة المضيئة لى ... حلمًا من العيش جدَّ مبتكرِ
١٦-نعمْ لعمرى فى الأرض زينتها ... مِنْ زهَرٍ مونق ومن ثَمَرِ
١٧-كأنها لافترارِ بهجتها ... تحيرُ نطقا لمدمن البصَرِ
١٨-واهًا لقُمْريِّها إذا اتسقتْ ... أسجاعه واسترح للسّحرِ
١٩-واهًا لسحر فى لحظ نرجسها ... يسطو بوقْع السجوّ والفترِ
٢٠-واها لأيكاتها إذا همَسَ النّسيمُ فى أذْنها مع القمَرِ
٢١-لكنّ أغصانهنّ يا أسفا ... بعيدة من منال مهتصرِ

* *

٢٢-أصبت فى العزم لا الشعور فإنْ ... أدرت لحظى فى الشئ لم يدرِ
٢٣-وإنْ مددت اليدين خانهما ... عزم الشباب الجرئ ذى الأشرِ
٢٤-يذعرنى الشئُ كانَ يجذبنى ... لشدّ ما أستجير بالحذرِ
٢٥-أحْمِلُ عبئًا من السنين فما ... عسى وراء الغايات منكدرى
٢٦-ولى من الذكريات حاشيةٌ ... فى حيث أمضى محشودة الزُّمَرِ
٢٧-فهاتها أذعر الشجون بها ... حتى أراها تطير كالشررِ

* *

٢٨-لمْ لا أبَتُّ الذى يقيّدنى ... بما مضى وانقضى مع العُصُرِ
٢٩-إنّى أرانى قد حلْت وانتخست ... مع الصّبا سورةٌ من السّورِ
٣٠-وصرت غيرى فليس يعرفنى ... إذا رآنى صباىَ ذو الطررِ
٣١-ولو بدا لى لبتّ أنكره ... كأننى لم أكنه فى عُمُرى
٣٢-كأننا اثنان ليس يجمعنا ... فى العيش إلا تشبث الذِّكَرِ
٣٣-مات الفتى المازنىّ ثم أتى ... من مازنٍ آخرٌ على الأثرِ
٣٤-فامْحُ ادّكاريه إنْ ذكْرتَه ... تُعين صرف الزمانِ والغيرِ
٣٥-وأخلنى اليوم من شجاى به ... أستأنف العيش غير مُنْبَهرِ

قصيدة «كأس النسيان» لعبد القادر المازنى من القصائد التى ذاع بعض أبياتها، وسرى فى أوساط المثقفين سريانا واسعا، وخاصة قوله :

مــــات الــفــتــى الــمــازنــى ثــم أتــى   مـــن مــــازنٍ آخـــرٌ عـــلــى الأثـــر

وهذه القصيدة كلها تتناول صورة معينة خصصت لها هذه القصيدة وإن كانت هناك أبيات أخرى فى عدد من القصائد تناوش هذه الصورة وتجاذبها وتردد أجزاءً منها، وكأن هذه القصيدة كانت تتخلق عبر شعره حتى اكتملت لها بنية مستقلة من أولها إلى آخرها .

لا أحب أن أتكلم عن مضمون القصيدة أو أفكارها فإن مثل هذه المضامين أو الأفكار يمكن التعبير عنها بصيغ مختلفة غير صيغة الشعر . ولكن المهم هو التعبير الشعرى، كيف جاء التعبير الشعرى عن هذه الأفكار، ولماذا آثرت القصيدة تركيبا ما دون سواه، وكيف تآزرت أجزاء القصيدة فى هذه البنية المتلاحمة بدءا ونهاية .

وأول ما يستلفت النظر فى هذه القصيدة هو عنوانها «كأس النسيان» بهذا التركيب الإضافى، وهل هي إضافة بمعنى «اللام» فيكون المعنى «كأس للنسيان» ومن أجله، أو هى إضافة بمعنى «مِن» فيكون المعنى «كأس من النسيان» فيكون ذلك بيانا لنوع الكأس وهنا يدخل التعبير فى مجال المجاز، فيصبح النسيان مما يشرب ويتناول، فى مثل هذه المواقف التى تدفع إلى اليأس والقنوط، أو المواقف التى تستدعى الجذل والنشوة .

وقد عاد الضمير على هذه الكأس التى لم تذكر فى البيت الأول بل أضمرت فى قوله «هات اسقني» واكتفى بالغرض الذى يُسقاها من أجله وهو «سلوةً عن الذكَر»، ثم قال «أنسى بها ما مضى من العمُر» و«أنسى بها حاضرى ومؤتَنفى» وأجْمَلَ فقال «بها أُنيم الشجونَ قاطبة»، وكرر فى البيت الرابع «هات اسقينها وخل نَشْوَتها تمحو الذى فى الفؤاد من صور» إنها إذن كأسٌ للنشوة المزعومة ينسى بها الآلام، وما جلبه الفكر والذِّكَر .

تعود القصيدة فى البيت الثامن فتسمّى هذه الكأس «كأس العَفَاء» والعفاء هو الزوال والهلاك، هل هى إذن الكأس المدمرة المهلكة التى تُهلك كل شىء، وتدمر كل شئ ؟ أو هى كأسٌ تدمّر جانبا لتحيى آخر . إنّ القصيدة تجمع بين هذين المعنيين، ففى البيت الثامن تقول :

فـــخـــلّ كـــأس الـــعـــفـــاء تـــســلــبــنــى   كـــنـــزى وتـــســـحُـــو ســـلاســـل الـــخـــبـــر

وفى البيت السابع والعشرين نقول :

فـــهـــاتـــهـــا أذعـــر الـــشـــجـــون بـــهـــا   حـــتـــى أَراهـــــا تـــطـــيـــر كـــالـــشَّـــرر

وهنا تكون هذه الكأس لنذَعَر الشجون وحدها، ولكنها فى البيت الثامن من أجل أن «تسلبنى كنزى» . إنّ هذا الكنز لم يأت وراثة ولا عثر عليه فى إحدى المغارات، ولا هو كنز من اللآلئ والجواهر بل هو أغلى من كل ذلك، إنه كنز من الأفكار والذكر الغوالى التى حُصلت مع الزّمن بالكدّ والعناء والمكابدة . إن هذه الكأس - إذن - مطلوبة على أنها ضرب من التمرّد على هذا الحظ العاثر الذى لا يتوافق مع قدر الموهبة والذكاء ومحصول المعرفة والعلم .

إنّ الفعل «هات» يتكرر طلبا لهذه الكأس ثلاث مرّات «هات اسقنى»، «هات اسقنيها»، «فهاتها» ويمكن أن نضيف إليها «فخل كأس العفاء ..» وهذا كله أمر لمخاطب هو الذى يناوله هذه الكأس، وهذا دليل على أن الطلب ليس طلبا جادا، أو حاسما، وإلا فلماذا لم يتناولها بنفسه ؟ إن هذا الطلب يمثل فحسب إعلانًا للثورة والتمرد والغضب وإعلان العصيان على هذه الحياة التى تسير بغير نظام ولا تعطى كلا ما يستحقه، فذوو العقول والحجا والمواهب والذكاء قد لا يجدون حظهم فى الثراء المادي الذى يتلاءم وفهمهم للحياة ونصيبهم من العلم والحجا . والقصيدة تؤكد هذا المعنى، وتبين أن طلب ترك

ما حصّل من كلّ الخبرات ليس طلبا جادًّا، وإنما هو غضب من انقلاب المعايير واختلال ميزان الحياة.

إنّ عنوان القصيدة مع أنّه ليس مذكورا فى صلبها ومتنها يتغلغل فى تضاعيفها، ويسرى فى أوصالها يُعين على تشكيل بنيتها الدلالية، ويظهر بضميره حينا، وبأثره حينا فيشكل أجزاءها، ويعمل على تماسكها ووحدتها، ولو عدنا إلى بنية القصيدة نتسّمعها ونتتبعها فسوف تفضى إلينا بشئ من مكنون أسرارها وخبىء دلالتها .

١-هــات اسقـنـى سـلـوةً عـنَ الـذّكَـرِ	أنْـسـى بـهـا مـا مَـضـى مـن الـعـمُـرِ
٢-أنـسـى بـهـا حـاضـرى ومـؤتـنـفـى	كـأنّـمـا يُـدْرجـان فـى الـحُـفَـرِ
٣-بـهـا أُنـيـم الـشـجـونَ قـاطـبـةً	وأتـقـى الـدّهَـر كَـرة الـفِـكَـرِ
٤-هـات اسـقـنـيـهـا وخـلّ نـشـوتـهـا	تـمـحـو الـذى فـى الـفـؤادِ مـن صُـوَرِ
٥-وخـذ كـنـوز الـعـقـول وارم بـهـا	مـن حـالـقٍ لـلـريـاحِ والـمـدَرِ

فى هذا المقطع الافتتاحى الحزين يعلو صوت ضمير المخاطب مأمورًا أو مرجوًّا، فيتردد سبع مرات فاعلا لفعل أمر، ويناوشه ضمير المتكلم المتحكم فى الحركة، ولا نحس أن المخاطب مستجيب للأوامر الصادرة إليه من المتكلم، أو مستطيع الاستجابة لكل ما يطلب منه إذ كيف يأخذ كنوز العقل، وكيف يرمى بها من حالق للرياح، وهل كنوز العقل مما يمكن أن يؤخذ ويرمى به ؟ والمتكلم فى هذا المقطع يقع فاعلاً للنسيان مرتين مرة لما مضى من العمر، وأخرى للحاضر والمستقبل معًا، كما يأتى فاعلاً لإنامة الشجون واتقاء عودة الفكر، ويأتى ممتلكا للحاضر والمستقبل مرتين، وواقعًا لحدث السقيا مرتين، والسقيا يقوم بها المخاطب مأمورا من المتكلم فهو - إذن - مفعول فى قوة الفاعل، وكأن المتكلم فى النهاية هو المستولى على المساحة التى احتلتها أبيات الافتتاحية، ويجعلنا نحن المتلقين لا نلتفت إلى المخاطب، بل يكون كل اهتمامنا موجها إلى المتكلم الذى يثير فينا الإحساس بوضعه المأساوى الحزين، وتنجح الأبيات فى افتتاحية القصيدة فى جعلنا نفكر فى حال هذا المتكلم الذى يريد أن يتخلص من ماضيه وحاضره ومستقبله، ويتخلص من كل ما حصله من كنوز العقل، وما فى فؤاده من صور وشجون بالتسلّى والنسيان والمحو وإماتة هذه الشجون .

هذه الأبيات الخمسة لم تقدم سببًا لهذه الثورة الغاضبة، والرغبة العارمة فى النسيان، ويأتى البيتان التاليان وهما :

٦-كـم غُـصْـتُ فـى لـجة الـحـيـاة فما	فـزت بـغـيـر الـصـخـور والـحـجـرِ
٧-وكـم نـفـضـت الـيـديـن مـن حـجـرٍ	حـسـبـتُـه درةً مـن الـدّررِ

فيقدمان سببًا لما كان فى الأبيات الخمسة السابقة، يتصدر كل بيت منهما بـ (كم) الخبرية التى تفيد التكثير . إنّ الغوص فى لجج البحار مع الصبر والمثابرة، والجلد والمخاطرة قد يسفر عن صيد بعض اللآلئ . وهنا نجد الغوص فى لجة الحياة لا يخرج معه إلا الحجارة وبعض الصخور . هذه معادلة ظالمة تدفع إلى اليأس والقنوط والإحباط والخذلان . وقد يحق لنا أن نفهم أن المحاولات لم تكن مرة واحدة، بل كانت كثيرة متكررة يحوطها الصبر والأناة، ويدفع إليها الحُلْم والأمل، لكن نتيجة المسعى خائبة، وفى كل مرة أو فى كل مغاصٍ من هذا الغوص الدائب كان يأتى فى يده شيء يظن أنه بعض اللآلئ أو يخاله شيئا من الدرّ فإذا به حجر من الأحجار، ولعل هذين البيتين يعبران عن انكشاف الوهم، وانقشاع الحُلْم وهذا ما يظهر الحياة على حقيقتها، فالحياة ما هى إلا وهم كبير إذا انقشع هذا الوهم ظهرت الحياة بقبحها، وهذا ما يدفع إلى الرغبة فى نسيان هذه الحقيقة المرة . إنّ هذا الوهم هو الذى يصور الحياة كنزًا ثمينا غاليا، فإذا انكشفت الحقيقة، فليذهب هذا الكنز ولينجرف مع ما تجرفه السيول فى طريقها الموّار .

٨-فـخـلّ كـأس الـعـفـاء تـسلـبـنـى	كـنـزى وتـشـحـو سـلاسـل الـخـبـرِ

وعندئذ يستوى العلم والجهل، وما كان من مشاعر فى الكبر والصِّغر فى هذه المنطقة من القصيدة يختفى المخاطب

تماما – وهو الذى أوجده المتكلم – وينفرد المتكلم فى نجوى داخلية وحديث إلى النفس مليءٍ بالشجن :

٩-ما ضرنى لو جهلت ما علمتْ نفسى وما قد أفادنى نَظَرى

١٠-أو لو نسيت الذى شعرت به فى كِبَرى الآن أو لدنْ صِغَرِى

١١-أو لو سلوت الذى كلفتُ به على الذى كان فيه من شَكَرِ

١٢-أو لو فقدت الذى فرحتُ به وما وجدنا فى حدّة النظرِ

هذه الأبيات الأربعة هى التى تكوّن ما أشارت إليه القصيدة من قبل على أنه «كنز العقول» وعلى أنها «كنْزى» . فكنز العقل – إذن – هو ما علمته النفس، وما أفاده النظر، وما اكتسبه الشعور من لدن الصغر إلى الكبر، وما كلف به على مدى هذا العمر مع ما كان فيه، وما فرح بتحقيقه فى هذه الدنيا من هذا المجال، وما أحدثته حدّة النظر والتفتيش العقلى . وهنا تتوازى التراكيب فى هذه الأبيات بما يشعر بتوازى ما تدلّ عليه . وهى كلها تدل على الرغبة فى استبدال حال بحال، وكل حال تقابلها أخرى نقيضة لها، إنه فى وضع يجعله يفضل النقيض السلبى . إنه يتساءل تساؤلاً يكشف فى أسًى عن تساوى النقيضين «ما ضرّنى لو ..» وتتعاطف الجمل المتوازية «أو لو ..» حتى يستوفى ما فى نفسه من «كنز العقل» والشعور الذى حصلته العين والأذن، وهما وسيلتا المرء إلى معرفة ما حوله من العالم واقتناصه .

١٣-أثَمَّ صوتٌ تعيد نبرتُه إلىَّ ذكرى الربيع والزَّهَرِ

١٤-أثَمَّ عينٌ تثير نظرتُها أحلام نفسى فى ريِّق الفِكَرِ

١٥-وتنشر اللذّة المضيئة لى حلمًا من العيش جدَّ مبتكرِ

هذان سؤالان يدفعاننا نحن المتلقين إلى إعادة النظر فيما مضى من القصيدة من طلب السلوّ والنسيان وفقدان ما تحقق من كنوز العقل، فلا نصدّق أنّ هذا الطلب على حقيقته، بل هو من الغضب والحسرة لما هو حاصل من انقلاب الأوضاع وتبدّل القيم واختلال الموازين . إنّه يريد إذن أن يجدّد النظرة إلى الحياة وتسمّع صوتها من جديد، سؤال عن الصوت الذى تعيد نبرته ذكرى الربيع والزّهر . وهذا من تداخل حاستَي السمع والنظر معا، إنّ للربيع وللزهر صوتًا، ونظرة العين المسئول عنها تثير أحلام النفس . إن أحلام النفس تستتار فى حناياها ولا ترى، وهذه النظرة أيضا تنشر اللذّة المضيئة كأنها حُلْم من العيش المبتكر الجديد الذى لم يمسّه الملل إنه يسأل ويعرف الجواب، والجواب لديه هو، فالسؤال موجه إلى نفسه . فهو يحث نفسه على إعادة النظر وتجديد التأمل وتغيير الشعور بالأشياء .

١٦-نعمْ لعمرى فى الأرض زينتها مِنْ زهَرٍ مونِق ومن ثَمَرِ

١٧-كأنها لافترارِ بهجتها تحيرُ نطقا لمدمن البصَرِ

هذا هو الجواب . فى الأرض زينتها بأنواعها المختلفة، وبهجتها المفترّة، وهى تردّ على من يدمن البصر إليها وتحدثه، وأمّا من لا يراها فهى لا تكلمه . وإذن نحن الذين تتغير أحوالنا، فأحيانا نرى ما فى الأرض من بهجة وزينة، وأحيانا لا نراها، قد يهن منا العزم، ويفتر الشعور فلا نبصر ما حولنا من زينة وبهجة فتحسّ أنّ كل ما حولنا كاب حزين، وقد يثب العزم، وينهض الشعور فنحس بأن كل ما حولنا مبتهج سعيد . فنحن مناط البهجة والسعادة نسعد فنرى ما حولنا سعيدا، ونحزن فنبصر كل ما يحيط بنا حزينا . نحن الذين نخلع ما فى نفوسنا على مظاهر الحياة حولنا .

١٨-واهًا لقُمْريِّها إذا اتسقتْ أسجاعه واستراح للسّحرِ

١٩-واهًا لسحر فى لحظ نرجسها يسطو بوقْع السّجُوّ والفِترِ

٢٠-واهًا لأيكاتها إذا همَسَ النّسيمُ فى أذنها مع القمَرِ

اتساق أسجاع القمري في السحر صوتٌ ومنظر، وسحر لحظ النرجس بوقع السجوّ والفتر منظر وصوت، همس النسيم في أذن الأيك مع القمر صوت ومنظر . إنها الزينة والبهجة وفتنة الحياة بكل حواسها التي تثير العجب والتعجب . إن التعجب من كل هذه المباهج فيه حسرة لعدم القدرة على التجاوب معها لما في النفس من غواشٍ تمنعها من ذلك وتعجزها دونه .

٢١-لـكـنّ أغـصـانـهـنّ يـا أسـفـا	بـعـيـدة مـن مـنـال مـهـتـصـرِ
٢٢-أُصِـبْـتُ فـي الـعـزم لا الـشـعـور فـإنْ	أدرت لـحـظـي فـي الـشـئ لـم يـدرِ
٢٣-وإنْ مـددت الـيـديـن خـانـهـمـا	عـزم الـشـبـاب الـجـريء ذي الأشـرِ
٢٤-يـذعـرنـي الـشـيء كـانَ يـجـذبـنـي	لـشـدّ مـا أسـتـجـيـر بـالـحـذرِ
٢٥-أحْـمِـلُ عـبـئًـا مـن الـسـنـيـن فـمـا	عـسـى وراء الـغـايـات مـنـكـدرِ
٢٦-وَلِـي مـن الـذكـريـات حـاشـيـةٌ	فـي حـيـث أمـضـي مـحـشـودة الـزُّمَـرِ

إنّه يدرك المأساة، ويعرف أنّه هو السبب، فقد وهي منه العزم مع أن الشعور باق على قوته، وهذه قمة الألم الذي يجلبه عبء السنين، وحاشية الذكريات المحشودة التي تقوم بديلا عن اجتماع الأشدّ ووفرة القوة . ومرة أخرى بعد أن بين أسباب المطلب الأول يكرره :

٢٧-فـهـاتـهـا أذعـر الـشـجـون بـهـا	حـتـى أراهـا تـطـيـر كـالـشـررِ

إنّ هذه الشجون المؤلمة هي ما أشارت إليه الأبيات من ٢١ إلى ٢٦ . هذه الشجون حارقة وهي مجتمعة متكالبة، يريد فحسب أن يفرقها ويذعرها، وهي عندما تتطاير تكون كالشرّر الذي قد يحرق أشياء أخرى . إن هذه الكأس لا تمحو الشجون، ولا تزيل أسبابها، إنها - فقط - قد تنيمها، والنائم قد يصحو، أو تذعرها وتفرقها، والمذعور قد يطمئن، والمتفرق قد يجتمع، لكن هذه الكأس قد تسلب الكنز العظيم الذي حصله المتكلم غير أنها لا تسلبه الشجون، فالشجون أكبر من أن تمحي، وأبقى أثرا من أن تزول، ولذلك لم يكن التعبير هنا «فهاتها أقهر الشجون» كما لم يكن هناك من قبل «بها أميت الشجون» فشجونه لا تقهر ولا تموت .

٢٨-لـمْ لا أَبـتُّ الـذي يـقـيّـدنـي	بـمـا مـضـى وانـقـضـى مـع الـعُـصُـرِ
٢٩-إنّـي أرانـي قـد حـلْـت وانـتـسـخـتْ	مـع الـصّـبـا سـورةٌ مـن الـسّـورِ
٣٠-وصـرت غـيـري فـلـيـس يـعـرفـنـي	إذا رآنـي صـبـايَ ذو الـطـرَرِ
٣١-ولـو بـدا لـي لـبـتّ أنـكـره	كـأنـنـي لـم أكـنـه فـي عُـمُـري
٣٢-كـأنـنـا اثـنـان لـيـس يـجـمـعـنـا	فـي الـعـيـش إلا تـشـبـث الـذِّكَـرِ
٣٣-مـات الـفـتـى الـمـازنـيّ ثـم أتـى	مـن مـازنٍ آخـرٌ عـلـى الأثـرِ
٣٤-فـامْـحُ ادّكـاريـه إنّ ذكْـرتَـه	تُـعـيـن صـرف الـزمـانِ والـغِـيَـرِ
٣٥-وأخـلـنـي الـيـوم مـن شـجـاي بـه	أسـتـأنـف الـعـيـش غـيـر مُـنْـبَـهِـرِ

في هذا المقطع الأخير لم تتخل القصيدة عن النجوى والحديث العاتب إلى النفس، وكأن المرء حرّ في تحمّل ما مضى وانقضى من عمره، يتحمله على اختيار منه، ويسائل صوت المتكلم المستولي على الأبيات بحيث يتردد في أربعة أبيات ست عشرة مرة، يسائل نفسه هنا : لم لا يقطع ما مضى وانقضى من عمره مع الزمان المنقضي ؟ إن الزمان قد انقضى ولكن ما حدث فيه مستمرّ مع حياة المرء، لأن كل يوم مبني على ما فات وإن كان المرء يجد نفسه قد تغير وتحوّل، ويكاد ينكر نفسه، وكأنه شخصان لا يعرف أحدهما الآخر، أولهما عاش فيما مضى من الزمن، والآخر يعيش الحاضر. وتقدم القصيدة هذا التنافي بصورة متعددة، أو بالأحرى في ثلاث صور تبدأ بتمهيد في جملة تقريرية «إني

أرانى قد حلت ..» تتلوها أخرى «وصرتُ غيرى ..» وتؤكّد الغيريّة بجملة «فليس يعرفنى إذا رآنى صباى ذو الطرر» وبجملة أخرى وهى «ولو بدا لى لبتّ أنكره» . ونلاحظ أنّ الجملة الأولى استعملت «إذا» وهذا لأن الصبا كامن فى ماض المرء وما تلاه مبنى عليه، ولكن عودة الصبا مستحيلة، ولذلك قيل فى الجملة التالية «ولو بدا» واستخدمت «لو» وهى حرف امتناع لامتناع فبدو الصبا ممتنع، والإنكار لم يحدث كذلك لأنه مترتب على ممتنع، وقد ينكر لأول وهلة هذا متوقع، ولكن الإنكار سيستمر حتى لو بدا الصبا واستمر ليلة كاملة فسوف يستمر الإنكار «ولو بدا لى لبت أنكرهُ كأننى لم أكنه فى عمرى» . وتأتى الصورة الثانية على التشبيه بالأداة «كأنّ» فتقول «كأننا اثنان» لا يجمعهما شىء إلا التمسك بالذكريات القديمة فحسب . أما الصورة الثالثة ففيها شىء من الحسم لتؤكد أنهما اثنان يتبع أحدهما الآخر ويليه فى الوجود، والآخر من مازن أيضا كما أن الأول مازنى وهو على أثر الأول، وكأن هذا من تعاقب الصور فحسب. وكأنه استراح إلى هذا الوهم وصدقه فيتوجه فى البيتين الأخيرين إلى طلب المخاطب أن يمحو تذكره، وأن يُخْليه من الشجى به على أمل أن يستأنف الحياة دون انقطاع الأنفاس والعناء بتذكر هذا الشخص الذى كان . وهل هذا ممكن؟ إنّ القصيدة تعود فى آخرها لتذكر بمفتتحها، فيطلب المتكلم من المخاطب أن يمحو ادّكار هذا الثانى الذى يؤدى تذكره الدائم إلى مساعدة صروف الزمان عليه، وغِيَر الدّهر، وهذه صيغة أخرى من صيغ «كأس النسيان» لأن محو هذه الذكرى لا يكون إلا بكأس النسيان التى سوف تساعد المتكلم على التخلص من الشجا بهذا الآخر . وهنا ندرك أن هذا الآخر هو الذى يحمل «كنوز العقول» التى طلب أن يرمى بها المخاطب من حالق للرياح والمدر . فهذه قصيدة محبوكة الأطراف ختمت بما بدأت به لكن بصيغة أخرى توافقت مع ما تدرجت إليه القصيدة، وما كونته بنيتها التى انتهت إليها آخر الأمر من خلال الصّور التى قدمتها .

* * *